أصالة فكر ابن خلدون

د. زرارقة عطاءالله

قسم علم النفس وعلوم التربية

جامعة الأغــواط

مقاربة منهجية:

- لا نقصد بالأصالة هنا النظرة التقليدية للمفهوم المقابل للمعاصرة، وإنما المقصود، من وراء ذلك التأصيل النظري والعملي لأفكاره. بالقياس أول إلى جمهور العلماء والمفكرين قبله. وبالقياس ثانيا إلى التفكير الواقعي، ورصد ما هو موجود وكائن في المجتمعات العربية وليس ما ينبغي أن يكون .
- كما لا نود أن نقيم مقرنة اصطناعية بين ابن خلدون، وبــين مــن سـبقه مــن الفلاسفة والمفكرين لأن من شأن ذلك أن يدخلنا في إطلاق الأحكام القيمية علــى مراحل ذات صلة وثيقة في الانتماء الحضاري .
- كما لا نود إطلاق أحكاما قسرية ذات طابع انبهاري يلفها كثيرا مــن الغمــوض بالقياس إلى الفكر الغربي، لأن ذلك من شأنه أن يدخل في التواصــل التــاريخي للفكر الإنساني، باعتبار أن الفكرة وتوظيفها ملك للناس كافة وانطلاقا من هذه من هذه المبررات، التي اعتمدتها كثير من المرجعيان، كغطاء تارة وكاستعلاء تــارة أخرى، في تسويغ ما ينبغي أن يكون، انطلاقا من ذلك يمكننا تصنيف أصالة الفكر الخلدوني في محاور لا تخضع بالضرورة إلى الترتيبات المنهجية التي اعتمدها :

1 ـ ابن خلدون آخر العنقود:

لا يكون هناك اختلافا كبيرا في وجهات النظر التي تناولت المراحل التاريخية للفكر العربي، في أن ابن خلدون أخر الموسوعيين العرب من حيث غـزارة ودقـة تفكيره، ومن جهة اهتمامه بالقضايا الفكرية والاجتماعية والإنسانية للمجتمع العربي، ومن جهة تأصيل وجهة نظره للواقع المعيش للإنسان العربي، بعيدا عن الطوباوية والميول ذات المنزع المثالي . إن موسوعية ابن خلدون تمثلت بالأساس في اهتمامه بالإنسان ذاته، وفي العلاقات التي تربط الإنسان بالإنسان سواء من جهة تحليل البنية الاجتماعية أو من جهة العلاقات السياسية أو الاقتصادية أو من خلال فهـم الأبعـاد التاريخية والنظم والاستراتيجيات التعليمية والتربوية .

إن المحاولات اللاحقة على فكر ابن خلدون، محاولات مجـزأة ذات مـضامين وأسس حالت الكثير من الصعوبات تحققها بل واكتمالها، كما أن التفكيـر قبـل ابـن خلدون أخذ الطابع المذهبي والسياق المعرفي المتكامل، ونسج على منـوال المـذاهب الفلسفية والفكرية، أكثر من اهتمامه بالواقع كما نجد ذلك عند أقطاب الفلسفة العربيـة كالفارابي.. وابن سينا...الخ . ودون التمييز بين الفكر المشرقي والفكر المغربي، كان ابن رشد أحد رواد تنشيط العقلانية العربية في مقابل العقلانية الغربية . إن التأصـيل لأفكار ابن خلدون باعتباره أخر السلسلة في الموسوعية العربية. يكمن في" تجـاوزه عصره بفكره الجبار ذي الطبيعة التركيبية والاطلاع الواسع "[1] وتكمن الطبيعة التركيبية في كونه فكر في الإنسان ونظر إليه من زوايا مختلفة تخـص العمـران والاجتمـاع بالدرجة الأولى، كما تكمن في النظر إلى الإنسان من جانب التكوين النفـسي لطبيعتـه البشرية، وتأثيرها في حياة الأفراد والمجتمعات. ولعل هذه النظـرة التركيبيـة كانـت نتيجة طبيعية لانشغالا ته الوظيفية " فقد عين سنة 1352م كاتبا في بلاط أبي إسـحاق الحفصي ..... في زمن كان لا يتجاوز فيه العشرين من عمـره .."[2] ونـدرك مكانـة الكاتب في الثقافة الإسلامية، حيث كان يعد من بين الذين تنوعـت ثقـافتهم، وألمـوا

بالكثير من ألوان العلم والمعارف، ولا نود الاسترسال في الوظائف التي تقلدها، فهي كثيرة، وتشير بدرجات مختلفة إلى الربط بين التفكير النظري والممارسة الواقعية في رصد تقلبات أحوال الإنسان، كما تشير إلى ما يكتسبه الإنسان من تجارب في معرفة دقائق ومتغيرات تلك التقلبات.

إن انفراد ابن خلدون بالتاريخ، وبدراسة أحوال الإنسان في ماضيه، جعله من الذين يقفون عند تلك الأحوال سواء في السياسة، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، أو التربية وطرق التعليم .من هذه الزاوية ننظر إلى تفرد وتميز ابن خلدون في التنظير للواقع وتحليله بعين نكاد لا نجد ما يضاهيها في الحراك الفكري الذي طغى على مسرح الأحداث في الثقافة العربية لاحقا.

2 ـ المنهج الواقعي في تحليل البنية الاجتماعية العربية :

بدأ تفكير ابن خلدون ينحو نحو الواقعية في رصد وتحليل لخصائص الظاهرة الاجتماعية من خلال ظروف أملتها عليه حياته الخاصة أولا، وحياته الفكرية ثانيا :

– أ – فمن جهة حياته الخاصة أي حياة وظائفه التي أكسبته تجربة بطبيعة الإنسان وبطبيعة العلاقات التي كان يلاحظها، والتي كانت جزءا من ممارساته اليومية، وهذا الجزء يعد في حد ذاته إنجازا على طريق التحليل الواقعي الموضوعي. حيث اكتسب "... خبرة واسعة في أحوال المجتمع وشؤون السياسة... واستهل هذه المقدمة باستعراض نقدي للأخطاء التي وقع فيها المؤرخون السابقون فردها إلى أسباب منها : عدم التدقيق، وميوعة البحث، والميل إلى الهوى، والجهل بطبيعة العمران "[3] من خلال هذا التقييم لرؤية ابن خلدون المنهجية أن الخبرة والتقلب في المناصب، واختبار حياة الناس من أهم أسس التفكير الواقعي، لأن المعايشة والملاحظة المباشرة والاحتكاك تنفي كل تفكير فضفاض لا تستقيم معه النتائج ذات الأسباب الافتراضية، وأحيانا الأسباب الوهمية . والأدلة على ذلك تمحيصه للواقعة التاريخية ونقدها باعتبارها تفتقد لمستلزمات البحث المباشر، فالواقعة التاريخية هي ظاهرة اجتماعية، أو حدث اجتماعي تداولت عليه الأيام

وتعمق به الزمن .ولذا فالظاهرة الاجتماعية، وبالتالي المجتمع " يخضع في نشأته، لعوامل طبيعية فعالة، وينساق في تطوره، لنواميس عامة شاملة، لا غنى للمؤرخ المحقق عن الوقوف عليها . وإذا تبسط في شرح تلك العوامل، وتفصيل هذه النواميس، وجد نفسه يدون علما جديدا ....." ولذا لا يمكن أن ننظر للواقعية بدون هذا المنظار . ولعل لابن خلدون مبررات فكرية فلسفية ساقته إلى هذا النوع من التحليل، والخروج عن المألوف مما كان سائدا قبله على الأقل بالنسبة للفكر العربي .

– ب – أما موقف ابن خلدون من الفلسفة والتي تشكل أحد الفضاءات الفكرية وأحد المبررات المنهجية الإقناعية بالنسبة إليه، وحتى بالنسبة لغيره من جمهور المفكرين، وهذا ما دعاه إلى تغليب الفكرة تلو الفكرة ولذا رفض التأملات التي لاطائل من ورائها، ولكنه " ... لم ينكر العقل، ولا أغفل العلوم العقلية التي هي في نظره طبيعية للإنسان من حيث أنه ذا فكر، بل اعترف بأن العلوم العقلية غير مختصة بملة معينة ...."[4] بغض النظر عن موقف ابن خلدون من التأمل الفلسفي، فإن تركيزه على العقل كقدرة إنسانية، وعلى العلوم كنتاج إنساني تتوارثه الأجيال يحيلنا ليس إلى ما هو واقعي فقط، وإنما إلى ما هو ملموس في تقييم الإنسان على أساس الأفكار العملية والتطبيقية.

– هذان العاملان كان لهما الأثر الكبير في إبراز ما لابن خلدون من رؤية تختلف عما كان موجودا قبله في التفريق بين ما يخضع للتأمل النظري وبين استقراء لواقع حال الإنسان وعناوين فهرست المقدمة دالة بكل المعاني على ذلك، ولا نود الاسترسال في ذكرها فهي معروفة، وفكرة الملك والقبيلة والعصبية تتركنا نقلص المسافة الزمنية الفكرية، على الرغم من امتدادها.....[5] فواقعية ابن خلدون اتسمت بالديمومة والاستمرار وكأن حال المجتمع العربي اليوم لا يبتعد ببنيته المعقدة عما كان يستقصيه ويلاحظه ابن خلدون.

ـ 3 ـ التربية والتعليم وبناء الإنسان:

مما لا شك فيه أ ن الإنسان أخذ من تفكير العلماء والمفكرين العرب أهمية كبيرة، ولا نود استعراض كل الآراء فهي كثيرة ومتنوعة، وإنما يجب أن نقف عند الإستراتيجية التربوية والبيداغوجيا التي أكد عليها ابن خلدون، وهي إستراتيجية لا تبتعد بالقدر الكبير على ما يجب أن يكون بالنسبة إلى بناء ناشئة تتسم بالقوة والإرادة العلميتين، " فالتعليم صناعة خاصة غايتها إثبات ملكة العلم في نفوس المتعلمين، لا حمل المتعلمين على حفظ فروع العلم ...."[6] تحمل هذه الفكرة معاني بيداغوجا تتعلق أولا بالفهم والتعليل والتفسير، أي إكساب المتعلم نمطا منهجيا يحرك فيه ملكة التحليل والاستيعاب لا الحفظ على الرغم ما للحفظ من أهمية في تكوين التراكم المعرفي . كما أن فرض الحفظ بالقوة من شأنه أن يقوض الحرية أهم مبدأ في العملية التعليمية، وما ينتج عنها من ميل وقابلية وشغف و" مراعاة مقدرة المتعلم العقلية فيما يلقى إليه من نوع العلم ومقدار ذلك النوع "[7] إن مقدرة المتعلم العقلية، توحي بتفهم ابن خلدون للفروق الفردية بين الناس، وهذا يعد في حد ذاته إنجازا في تسهيل العملية البيداغوجيا، ولا يتأتى ذلك إلى من خلال تمرس ووعي في كيفية بناء شخصية المتعلم، وفق الفروق الأفقية والعمودية التي يكتشفها المعلم .

إن هذه اللفتة القيمة من ابن خلدون تفترق كثيرا سواء من حيث الوضوح أو التركيز على ما ذكر قبله، لأن وبكل بساطة اكتشاف ذلك ينم عن تجربة واعية بالوجوه المختلفة في عملية بناء المعرفة لدى الإنسان، وخاصة عندما يتكلم عن" التدرج المعرفي أو مبدأي السهل والأقل سهولة أو التكرارات الممكنة لفهم الأصول أو الشرح والتفصيل[8] .

وفي مقدمة ابن خلدون ما يوضح ذلك أكثر . طبعا لا يمكننا أن نستعرض كل ما ورد، ففي ذلك بالتأكيد، يثقل هذه المداخلة، ولكن نشير لها بإيجاز غير مخل . فعناوين الفصول تبين أن ابن خلدون أراد من وراء ذلك شخصية متعلم متكاملة

الجوانب . فهاهو يخاطب المتعلم " وأعلم أيها المتعلم أني أتحفك بفائدة فإن تلقيتها بالقبول، وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم ...."[9] كما يتكلم ابن خلدون على دور الوالدين في التربية والتعليم[10] ويلح ابن خلدون في باب أخر على النشاط المدرسي والديناميكية وعلى شخصية المعلم ودوره كميسر للعملية البيدغوجية في فصل أن الشدة على المتعلم مضرة به[11]، وهذا الأمر فيه من الأصالة ما يوافق مبدأي الثواب والعقاب ودورهما في التحصيل الدراسي . كما فيه أيضا من الأصالة ما يبرز دور المعلم، فالمعلم يسود بعلمه وبقوة إرادته وبسلاسة معرفته، وليس بقمعه وتخويفه ونهره .

ولابن خلدون رأي في المقابلة بين العلم والترحال[12] بل بين الحرية وطلب العلم، وبين طلب العلم ولقاء العلماء والمشايخ . هذه الإشارات ولو كانت بسيطة في تركيبها فهي عميقة في مدلولها، ولعل البيداغوجيا الحديثة شاهدة على ذلك دونما الرجوع إلى معالمها فهي واضحة، بل إنما نمارس جزءا منها . هذه بعض الآراء الخاصة إجمالا بالتربية والتعليم والتي تبرز ما يلي:

- فهم عميق بالطبيعة البشرية
- إدراك مميز للفوارق الفردية
- تقدير واضح للقدرات الحسية والعقلية
- تحديد دقيق لدور المعلم
- ربط علمي بين العلم والحرية

4 ـ قيم العمل وتقدير الجهود:

بالنسبة للعمل وللجانب الاقتصادي، ولتقدير الجهود كقيمة أخلاقية سلوكية في تحديد طرق بناء الحضارة والإنسان على حد سواء، لم تكن غائبة في الجهد الفكري للعلامة ابن خلدون، فالفصول الخاصة بهذه المواضيع تدل دلالة واضحة على درجة الاهتمام . ويكفي لهذين الموضوعين : الدراسة الاقتصادية التي قام بها

المرحوم د/ عبد المجيد امزيان في مؤلفه " النظريات الاقتصادية عند ابـن خلـدون" والدراسة الأخلاقية التي قام بها د/ عبد الله شريط، في مؤلفه " الأخلاق عنـد ابـن خلدون " كل ذلك وغيره يوحي ما لابن خلدون من دور كبيـر فـي التأسـيس لكـل الميادين التي تساعد على بناء مقومات الإنسان وتوطيد دعائم المجتمع الحـضارية ورفاهيته وخاصة في الفصل الذي يتكلم فيه عن " على أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته "[13]، ومعلوم أن الصنائع تستكمل بالعمل المـتقن والجهـد المخلص . وعندما يكون الحديث عن العمل، يتوجب النظر إلى ما يـؤطر الأعمـال والنشاطات، ولذا كانت هناك جملة من النظريات في الباب الاقتصادي[14] . وهي ذات بعد أصيل أخذت بعين الاعتبار المعطيات الاجتماعية للواقع العربي، بل طبيعة الإنسان العربي وعلاقته بمفهوم وقيمة العمل " من الأفكار الأصيلة التي عرضها ابن خلدون في مقدمته نظريته في العمل والقيمة... فقد عقد فصلا ممتازا " في حقيقـة الـرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب قيمة الأعمال البشرية ....".[15] تظهـر أصـالة ابـن خلدون هنا عندما يربط بين العمل والأخلاق، وبين العمـل والأخـلاق والإنـسانية، فالعمل ليس مجرد نتاج مادي استهلاكي، وإنما يكتسي مضمونا أخلاقيا وإنـسانيا " ولهذا يختم ابن خلدون بحثه هنا بعبارة حاسمة فيها يسوغ نظريته كلها وهـي : أن المفادات كلها والمكتسبات كلها، أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية "[16].

5 ـ **خاتمة المداخلة** :

في سنة **1981** ولما كنا ندرس بجامعة الجزائر، وقع في زمنه نقاشا حـول إحدى المسائل ذات الصلة بفكر ابن خلدون .وكان المقياس آنذاك " علـم الاجتمـاع الثقافي " وكان مؤطر المقياس المرحوم الدكتور عبد المجيد أمزيـان ولمـا اشـتد النقاش قال " لقد عشت مع تراث ابن خلدون عقودا من الزمن " لـم أتـذكر العـدد بالضبط " ولما أعود لقراءته أكتشف أشياء جديدة " هذه الشهادة وهذا الحكم يـدلان

على أن لابن خلدون أفكارا إنسانية خالدة، وأنه تجاوز عصره بقرون وأنه فكر بواقعية بل بموضوعية في الإنسان وفي المراحل التي مر ويمر بها.

هذه الملاحظة تبرز بشكل جلي قي إعادة قراءتنا لمقدمة المقدمة وفي المواضيع المتضمنة فيها، فيخيل للإنسان القارئ أن هناك تطابقا يكاد يكون تاما، بين ما كتب وبين ما هو معاش، مما يستدعي الرجوع إليها والتمعن فيها، على الرغم من السافة الزمنية، والمسافة التكنولوجية والعلمية الحاصلة .فهي تفيد في فك رموز العقد الاجتماعية، وفي التداخل اللامنطقي في العلاقات الإنسانية ذات البعد الاجتماعي .كما تفيد في فهم المنطلقات الفكرية التي على أساسها فكر، وهي منطلقات أصيلة، أصالة ابن خلدون .

المراجع :

1- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، مكتبة ومطبعة عبد الرحمانمحمد لتسيير القرآن بيروت لبنان
2- النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، عبد المجيد مزيان ديوان المطبوعات الجامعية، ط3 الجزائر 1988
3- ابن خلدون والمجتمع، محمود عبد المولى، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1976
4- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، عبد الرحمان بدوي، ط2، 1967
5- معالم في الفكر العربي، كمال اليازجي، دار العلم للملايين، ط6، 1979
6- الكلام والفلسفة، د/ عادل العوا، ط2، مطبعة جامعة دمشق، 1964
7- عبقرية العرب في العلم والفلسفة، عمر فروخ، ط3 ،بيروت، 1969

الهوامش :

1 - ابن خلدون وعلوم المجتمع، د/ محمود عبد المولى، الدار العربية للكتاب، لبيا – تونس، 1976، ص8.

2 - المرجع نفسه ص 29.

3 - ابن خلدون، المقدمة - في النصوص الفلسفية الميسرة، عن معالم الفكر العربي، كمال اليازجي، دار العلم للملايين، بيروت، ط6 1979، ص324 - 325.

4 - الكلام والفلسفة، د/ عادل العوا مطبعة جامعة دمشق، ط2، 1964، ص 155 - 156.

5 - مزيد من الاطلاع أنظر مقدمة ابن خلدون الفصل الثالث من الكتاب الأول ص110 - 111 .

6 - عمر فروخ، عبقرية العرب في العلوم والفلسفة، الطبعة الثالثة بيروت، 1969، ص204.

7 - المرجع نفسه، ص 204.

8 - المرجع نفسه ص204.

9 - المقدمة، ص 402.

10 - المصدر نفسه، ص404 .

11 - المصدر نفسه، ص406 .

12 - المصدر نفسه، ص 406.

13 - المصدر نفسه، ص286 .

14 - لمزيد من التفصيل، أنظر النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، د/ عبد المجيد أمزيان، حيث يتطرق إلى الأسس الفكرية للنظريات الاقتصادية من الوجهة الإسلامية والواقع الاجتماعي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988.

15 - دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي د/ عبد الرحمان بدوي، ط2، مكتبة الأنجلو مصرية، 1967، ص138 .

16 - المرجع نفسه، ص 140.